﴿وَقَالُواْ يَـٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهۡتَدُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَمَّا كَشَفۡنَا عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابَ إِذَا هُمۡ يَنكُثُونَ ﴿٥٠﴾﴾

[الزخرف: 49 - 50]

❁ مُناسَبَةُ الآيَتينِ لِما قبلَهما:

المراوغةُ بطلب تخفيف العذاب مع التَّعَهُّد بالاهتداء والإيمان

بعد أن بيَّنت الآيةُ السّابقةُ عِظَمَ المُعجزاتِ الَّتي أيَّد اللّهُ تعالى بها نبيَّه موسى ﷺ، وذكرت أنَّ الحقَّ سبحانه عاقب فرعونَ وقومَه بالعذاب والإهلاك حتَّى يرجعوا عن كفرهم بتلك الآيات، ويتوبوا من إصرارهم على تكذيب الرَّسول؛ ناسب أن تَذْكر هاتان الآيتان مراوغَتَهم بالتَّعهُّد لموسى بالاهتداء والإيمان؛ إذا خفَّف اللّهُ عنهم العذابَ، وأن توضِّحا أيضًا عدمَ وفائِهم بهذا التَّعَهُّد بعد تمام التَّخفيف[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلسَّاحِرُ﴾: (سحر) أُصولٌ ثَلاثَةٌ مُتَباينَةٌ: أحَدُها: السِّحْرُ، قالَ قَومٌ: هوَ إخراجُ الباطِلِ في صورَةِ الحَقِّ[2]، ويُقال على معانٍ: منها الخداعُ وتخييلاتٌ لا حقيقة لها، نحو ما يقوم به المُشَعْبِذُ من صرف الأبصار عمّا يفعله لخفَّة يده، وما يفعله النَّمّامُ بقول مُزَخرَفٍ عائقٍ للأسماع، وعلى ذلك قولُه تعالى: ﴿سَحَرُوٓاْ أَعۡيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسۡتَرۡهَبُوهُمۡ﴾ [الأعراف: 116]، وقوله: ﴿يُخَيَّلُ إِلَيۡهِ مِن سِحۡرِهِمۡ﴾ [طه: 66]، وبهذا النَّظر سمّوا موسى ساحِرًا، فقالوا: ﴿يَـٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ﴾[3].

2) ﴿عَهِدَ﴾: (عهد) أصلٌ دالٌّ عَلى مَعنًى واحِدٍ، هو: الاحتِفاظُ بِالشَّيءِ وإحداثُ العَهدِ بِه، ومِن ذَلِكَ قَولُهُم: عَهِدَ الرَّجُلُ يَعهَدُ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 227، وطنطاوي، التفسير الوسيط: 13/ 87.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سحر).
(3) الراغب، مفردات القرآن: (سحر).

عَهدًا، وهو مِنَ الوَصِيَّةِ، وإنَّما سُمِّيَتْ بِذَلِكَ؛ لأنَّ العَهْدَ مِمّا يَنبَغِي الاحتِفاظُ بِهِ[1]، والعَهْدُ: المَوْثِقُ، وجَمْعُهُ: عُهودٌ، وعَهِدَ فلانٌ إلى فلانٍ يَعْهَدُ، أي: ألقى إليه العهدَ، وأوصاه بحفظه، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ﴾ [طه: 115]، وقال: ﴿۞أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ﴾ [يس: 60][2]، واستعمل في معنى العلم بوجودٍ دائمٍ في حَوزة، كقوله تعالى: ﴿ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ﴾ [الأعراف: 134]، أي: بما وصّاك أن تدعوَ به ليُجيبَك[3].

3) ﴿كَشَفْنَا﴾: (كشف) أصلٌ صَحِيحٌ يَدُلُّ عَلى سَرْوِ الشَّيءِ عَنِ الشَّيءِ، كالثَّوبِ يُسرَى عَنِ البَدَنِ، يُقالُ: كَشَفْتُ الثَّوبَ وغَيْرَهُ أكشِفُهُ، وكَشَفْتُ الثَّوبَ عن الوَجْهِ وغيرِه[4]، ومعناه المحوريُّ: تنحِّي ما شأنُه أن يُغَطَّى من ظاهر الشَّيء، فيَظهر ما تحتَه، كظهور جِلد مقدَّم الرَّأس، وظهور ما تحت الشَّفة في الضَّحك، ومن تنحية الغطاء المادّيّ قوله: ﴿وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا﴾ [النمل: 44]، ثم استُعمل في تنحية ما يَغشى معنويًّا، كقوله: ﴿لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ﴾ [الأعراف: 134]، وقوله: ﴿فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ﴾ [الأنعام: 41]، و: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾ [النمل: 62][5]، وهو المراد هنا.

4) ﴿يَنكُثُونَ﴾: (نكث) أصلٌ صَحِيحٌ يَدُلُّ عَلى: نَقْضِ شَيءٍ، يُقالُ: نَكَثَ العَهْدَ يَنكُثُهُ نَكْثًا، وانتَكَثَ الشَّيءُ: انتَقَضَ، وقالَ قَوْلًا لا نَكِيثَةَ فِيه، أي: لا خُلْفَ، ومِنهُ: طَلَبَ حاجَةً، ثُمَّ انتَكَثَ لأُخرى، كَأَنَّهُ نَقَضَ عَزْمَهُ الأوَّلَ، قال تعالى: ﴿وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيْمَٰنَهُم﴾ [التوبة: 12]، وقال: ﴿إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ﴾[6]، أي: ينقضون عهدهم.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

تُبَيِّن الآيتان أنَّ فرعونَ وقومَه حين أخذهم الله تعالى بالعذاب، قالوا لموسى – على سبيل التَّذلُّل والتَّعظيم من شأنه – يا أيُّها السّاحر الَّذي غلبنا بسحره وعِلمه، ادع لنا ربَّك بحقِّ عهده

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عهد).
(2) الراغب، مفردات القرآن: (عهد).
(3) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي: (عهد).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (كشف).
(5) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي: (كشف).
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، مفردات القرآن: (نكث).

إليك بالنُّبوَّة، لئن كشف عنا ربُّك هذا العذاب - الَّذي نزل بنا - إنَّنا لَمُهتَدونَ، أي: لمؤمنون ثابتون على ذلك، متَّبعون لك في كلِّ ما تأمرنا به، أو تنهانا عنه، فلمّا استجاب الله تعالى دعاء نبيِّه، وخفَّف عنهم ما نزل بهم؛ نقضوا عهدهم، فلم يؤمنوا، واستمرّوا على كفرهم وعنادهم[1].

تعهُّدٌ بالاهتداءِ إذا خُفِّف العذابُ، ونكثٌ للوعد بعد حصولِ التَّخفيف

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

نوعُ الواو ودلالتها في أوَّل الآية:

الواو في قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ يَـٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ﴾ لعطف ما بعدها على قوله: ﴿وَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ﴾، والمعنى: ولمّا أخذناهم بالعذاب على يد موسى سألوه أن يدعو الله بكشف العذاب عنهم[2]، وأوثر العطف بها لما بين الجملتين من اتِّفاق في الخبر، فيما يُعرف بلاغيًّا بالتَّوسُّط بين الكمالين.

من علامات المشركين الرُّجوعُ إلى الله حين الضَّرّاء، والصَّدُّ عنه حين السَّرّاء

دلالةُ التَّعبير بفعل القول مُسندًا إلى ضمير الجماعة:

التَّعبيرُ بالفعل: (قالوا) الموضوع لإبراز ما يُتَصوَّر في النَّفس[3] مع إسناده إلى واو الجماعة في قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ يَـٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ﴾؛ للدَّلالة على أنَّهم متَّفقون في طلبهم هذا بعد عموم البلاء بهم، ويدلُّ أيضًا على أنَّهم قالوا ذلك بلسان المقال كما فعل فرعونُ، أو بلسان الحال والاتِّباع، كما فعل قومُه وأتباعُه[4].

كان فرعون وقومه يحبّون رفع العذاب، ويحبّون البقاء على ما هم فيه من الشِّرك

نكتة النِّداء بـ(يا):

(يا) حرف نداء يُستعمل للبعيد، وهو أكثرُ حروف النِّداء استعمالًا، ولا يُقَدَّرُ عند الحذف سواها، وقد يُنادى بها القريبُ توكيدًا[5]، وقيل: "(يا) حرف نداء، وضع في أصله لنداء البعيد،

الخطابُ الَّذي يأتي بعد حرفِ النِّداء مَعْنِيٌّ به جِدًّا

(1) طنطاوي، التفسير الوسيط: 13/ 78.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 227.
(3) الراغب، مفردات القرآن: (قول).
(4) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 444.
(5) ابن هشام، مغني اللبيب: 2/ 429.

فإذا نودي به القريبُ المُفاطِنُ؛ فذلك للتَّأكيد المُؤذِن بأنَّ الخطابَ الَّذي يَتْلوه مَعنِيٌّ به جِدًّا"[1]، ففي نداء فرعون وقومه نبيَّ اللّه موسى به تمهيدٌ وتوطئةٌ للإقبال عليه، وتنبيهٌ على أنَّهم سيطلبون منه أمرًا بالغ الأهمّيَّة، لا يمكن للأحد غيره أن يقوم به، ويجوز أن يكون في ندائهم له بأداة البُعد دلالة على "بُعده من قلوبهم"[2].

دلالةُ التَّعبير بـ (أيُّهَ):

إشعارُ موسى بأنَّه ذو أهمّيَّة عندهم، للطَّمع في إجابة طلبهم

(أيّ) اسمٌ مبهمٌ مُفتقِرٌ إلى ما يوضِّحه، ويُزيل إبهامَه، ولا يُعلَم المقصودُ بالنِّداء إلّا بإردافه بنعتٍ يُزيل إبهامَه، ودخول (ها) على (أيّ) في النِّداء، توجب التَّنبيه على أنَّه المقصود بالنِّداء، وهي في هذه الصِّيغة تعاضدُ حرفَ النِّداء وتُقَوّيه، فتزيدُه قوَّةً وتأكيدًا[3]، والسِّرُّ في ندائهم نبيَّ اللّهِ موسى ﷺ بهذه الصّيغة تفخيمُه وتعظيمُه، وإشعارُه بأنَّه ذو أهمّيَّة عندهم، وملجؤُهم في النَّوازل والملمّات.

الغرضُ من النِّداء بوصف السّاحر:

السّاحرُ قديمًا هو العالمُ بخفايا الأمور المطَّلعُ على ما لا يطَّلع عليه الآخرون

نداؤهم نبيَّ اللّه موسَى بِوَصْفِ: ﴿ٱلسَّاحِرُ﴾ نداءُ "تعظيم؛ تزلُّفًا إليه؛ لأنَّ السّاحر عندهم كان هو العالم، وكانت علوم علمائهم سحريَّة، أي: ذات أسباب خفيَّة لا يعرفها غيرهم وغير أتباعهم"[4]، "ولم يكن السِّحر في زمانهم مذمومًا عندهم، فليس هذا منهم على سبيل الانتقاص؛ لأنَّ الحالَ حالُ ضرورةٍ منهم إليه لا تناسب ذلك، وإنَّما هو تعظيم في زعمهم"[5]، وفي النِّداء بجانب ذلك نوعٌ من الاستغاثة بمَن يأملون فيه العونَ والمُساعدةَ في رفع العذابِ الَّذي حلَّ بهم.

(1) الزمخشري، الكشاف: 1/ 89.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 444.
(3) ابن هشام، مغني اللبيب: 2/ 403، والهروي، الأزهية في علم الحروف، ص: 107.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 227.
(5) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 7/ 211.

الغرضُ من الأمرِ في: ﴿ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ﴾:

قد يُقصد من الأمر التَّوسُّلُ والرَّجاءُ واستعطافُ المأمور

قولُ فرعونَ وقومِه: ﴿ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ﴾ أسلوبُ أمر خرج عن معناه الحقيقيِّ إلى التَّوسُّلِ والرَّجاءِ والطَّمعِ في أن يستجيبَ نبيُّ اللّٰه موسى لهم، فيتوجَّه إلى اللّٰه تعالى بالدُّعاء والتَّضرُّع من أجل رفع العذاب عنهم، مع وعده بالاهتداء والإيمان؛ إذا استجاب ربُّهُ لدعائه، ورَفَعَ ما أنزله بهم من عذابه.

نوع اللّام في: ﴿لَنَا﴾ ومرجع الضَّمير فيه:

المعذَّبون لا يرغبون في التَّضرُّع إلّا من أجل إنقاذهم

اللّام في قولهم: ﴿لَنَا﴾ حرفُ جرٍّ يفيد التَّخصيص، وفي التَّعبير به دلالة على رغبتهم في أن يكون تضرُّع موسى إلى ربِّه خاصًّا بهم، وأن يكون ابتهالُه إليه من أجلهم، والضَّمير المجرور فيه يعود على القائلين، وهم فرعونُ وقومُه، وفيه ما يدلُّ على أنَّ العذابَ الَّذي أخذهم اللّٰهُ تعالى به قد أحدث فيهم - جميعًا بلا استثناء - آثارًا بالغةً، وألحق بهم أضرارًا فادحةً، جعلتهم يطلبون الابتهالَ والدُّعاءَ من نبيِّ اللّٰه.

الغرضُ من تقديم الجار والمجرور على المفعول:

المعذَّبون لا يهتمّون عادة إلّا بما يخصُّهم، ويُنجيهم

آثر المتكلِّمون تقديم الجار والمجرور: ﴿لَنَا﴾ على المفعول: ﴿رَبَّكَ﴾ في قولهم: ﴿ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ﴾؛ لأنَّ اهتمامَهم منصبٌّ على طلب الدُّعاء والنَّجاة لأنفسهم، فالمُعذَّبون لا يهتمّون عادة إلّا بما يخصُّهم، ويُنجيهم، يُضاف إلى ذلك عِلمُهم بأنَّ موسى لن يدعوَ أحدًا غيرَ ربِّه ﷻ.

سرُّ التَّعبير بـ ﴿رَبَّكَ﴾ وإضافتها إلى ضميره:

مظاهرُ إحسانِ اللّه تعالى إلى أنبيائه وخَلقِهِ باديةٌ جليَّةٌ

المقصود بـ ﴿رَبَّكَ﴾: الرَّبُّ الَّذي دعاهم موسى لعبادته، وآثروا التَّعبيرَ عنه بعنوان الرُّبوبيَّة؛ لِما رأوه من مظاهر رعايته لموسى والاعتناء به والإحسان إليه، والمعنى: "ربُّك المحسنُ إليك بما يفعل معك من هذه الأفعال الَّتي نهيتنا بها إكرامًا لك"[1]، وأضافوه إلى

(1) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 445.

ضمير المخاطَب العائد إلى موسى؛ لأنَّهم "كانوا يحسبون أنَّ لكلِّ أمَّة ربًّا، ولا يحيلون تعدُّد الآلهة، وكانت لهم أربابٌ كثيرون مُختَلِفَةٌ أعمالُهُم وقَدْرُهُم، ومثلُ ذلك كانت عقائد اليونان"[1].

نوع الباء ودلالة التَّعبير به:

الباء في قوله: ﴿بِمَا عَهِدَ﴾ هي باء السَّببيَّة، والمعنى: بسبب ما عهد عندك[2]، ويمكن أن تكون للاستعانة[3]، والمعنى: ادعُ لنا ربَّك متوسِّلًا بما عهد عندك[4].

نوع (ما) ودلالته:

كلمة (ما) في قولهم: ﴿بِمَا عَهِدَ﴾ يمكن أن تكون اسم موصول، والجملة بعدها صلة، والعائد محذوف، تقديره: بالَّذي عهده عندك، ويمكن أن تكون مصدريَّة منسبكة مع ما بعدها في تأويل مصدر، تقديرُه: بعهده عندك[5]، وأيًّا كانت، ففي التَّعبير بها نوعٌ من التَّكثير والتَّعميم الدّالِّ على أنَّهم يطلبون من نبيِّ الله أن يتضرَّع إلى ربِّه متوسِّلًا بكلِّ ما خصَّه به دون غيره، ممّا ساعده على أن يأتي بخوارق العادة[6]، والمعنى: "بِما عَهِدَ عِندَكَ أو بعهده عندك: من أنَّ دعوتك مستجابة، أو بعهده عندك، وهو النُّبوَّة، أو بما عهد عندك، فوفَّيت به، وهو الإيمان والطّاعة، أو بما عهد عندك من كشف العذاب عمَّن اهتدى"[7].

ما اختصَّ به اللهُ تعالى أنبياءَه ورسلَه دون غيرهم كثيرٌ لا حصرَ له

دلالةُ التَّعبير بفعل العهد:

العَهْدُ: هو الائتمانُ على أمر مهمٍّ، وليس مرادهم به النُّبوءةَ؛

الكفَّارُ يوقنون أنَّ اللهَ تعالى قادرٌ، ولذا يطلبون من أنبيائهم التَّضَرُّعَ إليه

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 227.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 445.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 228.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 13/ 88.
(5) الدرة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: 8/ 615.
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 227.
(7) الزمخشري، الكشاف: 4/ 257.

لأنَّهم لم يؤمنوا به، وإذ لم يعرفوا كُنْهَ العهد؛ عبَّروا عنه بالموصول وصلته؛ لأنَّهم لمّا رأوا الآيات؛ علموا أنَّ ربَّ موسى قادرٌ، وأنَّ بينه وبين موسى عهدًا يقتضي استجابة سؤلِه[1].

وجهُ التَّعبيرِ بالعنديَّة:

ما هو موجودٌ عند المرسلين ليس موجودًا عند أحدٍ غيرِهم

عبَّر المنادون على نبيِّ الله موسى بالظَّرف المُضاف إلى ضميره في قولهم: ﴿بِمَا عَهِدَ عِندَكَ﴾؛ جريًا على عادتهم في أنَّهم كانوا يَحسَبونَ أنَّ "تلكَ الآياتِ مَعْلولَةٌ لِعللٍ خَفيَّةٍ، قِياسًا عَلى مَعارِفِهم بِخَصائِصِ بَعضِ الأشياءِ الَّتي لا تَعرِفُها العامَّةُ، وكانَ الكَهَنَةُ يَعْهَدونَ بِها إلى تَلامِذَتِهم، ويوصونَهُم بالكِتْمانِ"[2]، ما يعني: أنَّهم يؤكِّدون اعتقادَهم جدارةَ موسى بندائهم؛ لأنَّ عندَه ما ليس موجودًا عند أحدٍ غيرِه.

موقعُ جملة: ﴿إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ﴾ وسِرُّ فصلِها:

علموا أنَّ النَّجاة في التَّوبة والاهتداء، لكنَّهم عاندوا، وجحدوا

جُملَةُ: ﴿إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ﴾ جَوابٌ لِكَلامٍ مُقَدَّرٍ دَلَّ عَليهِ قولُهم: ﴿ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾، والمعنى: فَإن دَعَوْتَ لَنا ربَّك، وكَشَفَ عَنّا العَذابَ؛ لنُؤْمِنَنَّ لَكَ، كَما في آيَةِ الأعراف: ﴿لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ﴾ [الأعراف: 134][3]، أي: إنَّها تدلُّ على سبب طلبهم من نبيِّ الله أن يبتهلَ إلى ربِّه برفع العذاب عنهم، ما يعني: أنَّها فُصِلَتْ عمّا قبلها، كما يُفْصَل السَّببُ عن المُسَبَّب، فيما يُعرف بلاغيًّا بشبه كمال الاتِّصال.

وجهُ تتابع المؤكِّدات في: ﴿إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ﴾:

الشَّكُّ في كلامِ المُنادِين كفيلٌ بصرف المُنادَى عن مساعدَتِهم

أكَّد المنادون قولَهم: ﴿إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ﴾ بـ(إنَّ) واللّام المُزحلقة والجملة الاسميَّة؛ لِحَمل نبيِّ الله على تصديقِهم، وإشعارِه بأنَّهم جادّون في كلامهم، صادقون في عزْمِهم على التَّوبة والرُّجوع إلى طريق الهدى والرَّشاد، ومِن ثمَّ يحصل ما يرجونه، وهو الدُّعاء

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 228.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 228.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 228.

بكشف العذاب عنهم؛ إذ الشَّكُّ في كلامهم كفيلٌ بصرف موسى عن مساعدتهم.

دلالةُ التَّعبيرِ بـ (مُهْتَدونَ) مادَّة وصيغة:

(مُهْتَدونَ) في قولِه: ﴿إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ﴾ اسمُ فاعِلٍ مُستَعمَلٌ في مَعنَى الوَعدِ، وسَمَّوا تَصديقَهُم إيّاهُ اهتِداءً؛ لأنَّ موسَى سَمَّى ما دَعاهُم إلَيهِ هَدْيًا، كَما في آيَةِ سورَةِ النّازِعات: ﴿وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾﴾ [النازعات: 19]، وآثروا التَّعبيرَ باسم الفاعل؛ لأنَّه مُنْصَرِفٌ إلى المُستَقبَلِ بالقَرِينَةِ، كَما دلَّ عَلَيهِ قَوله تعالى: ﴿يَنكُثُونَ﴾[1]، ولِما يفيده التَّعبيرُ بالاسم من الثُّبوت والدَّوام، والمعنى: مهتدون "اهتداء ثابتًا، ومؤمنون إيمانًا راسخًا يصير لنا وصفًا لازمًا عند كشفِ العذابِ عنّا"[2].

تَعَهُّدُ الكفّارِ بأن يكون إيمانُهم راسخًا عند رفع العذاب عنهم

فائدةُ التَّعبير بالفاء في: ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا﴾:

الفاء في قوله: ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا﴾ عاطفةٌ ما بعدها على كلامٍ محذوفٍ، تقديرُه: فدعا موسى ربَّه، فأجاب اللّهُ دعوتَه بأن كشفَ عنهم، فلمّا كشفنا عنهم العذاب؛ إذا هم ينكثون، وأوثر العطف بالفاء الَّتي تفيد التَّعقيب؛ للدَّلالة على سرعة نكثهم ما تعهَّدوا به، وشدَّة إصرارهم على الكفر، ما يدلُّ على أنَّ "حالَهم حالُ من يعتقد أنَّه ساحرٌ فعلًا؛ لأنَّهم أسرعوا الخيانةَ بالكذب فيه، من غير استحياءٍ ولا خوفٍ"[3].

ما أسرعَ الكفّار في نكثهم للعهد! وما أشدَّهم في التَّمسُّك بالكفر!

دلالةُ التَّعبير بـ (لَمّا):

(لَمّا) في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا﴾ حرفُ تعليق، كما قال سيبويه، أو ظرف زمان، كما قال أبو عليٍّ الفارسيُّ[4]، وأيًّا كان

مِن خُبْثِ فرعون وقومِه وسوءِ طويَّتِهم أن يُصاحبَ نكثُهم للعهد رفعَ العذابِ عنهم

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 228.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 445.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 445.
(4) المرادي، الجنى الداني، ص: 595.

نوعُها؛ فهي هنا تربط بين جملتين، وتدلُّ على وقوع الثّانية منهما مع حصول الأولى؛ إذ يُفهم من التَّعبير بها مصاحبةُ إصرار فرعون وقومه على الكفر، وتزامنُ نَكْثِهم للعهد الَّذي قطعوه على أنفسهم بالاهتداء مع رفع العذاب عنهم، ما يدلُّ على خبثِهم وسوءِ طويَّتِهم وتمكُّنِ الكفر منهم، وتغلغُلِه في قلوبهم، بصورةٍ لا يمكنهم الانفكاكُ عنها، أو التَّخلُّصُ منها.

دلالةُ التَّعبيرِ بالفعل ﴿كَشَفْنَا﴾ مادَّة وصيغة:

كشْفُ العذاب سهلٌ على الله تعالى بما له من العظمة الَّتي تُرهب الجبال

عبَّر النَّظمُ الكريمُ بالفعل: ﴿كَشَفْنَا﴾ الموضوع لتنحية ما يُغَطِّي - كما سبق بيانه - للدَّلالة على أنَّ الله تعالى قد تفضَّل برفع العذاب عنهم رفعًا كاملًا؛ استجابةً لدعاء نبيِّهم موسى، وبناءً على تعهُّدهم بالإيمان والاهتداء، وأوثر التَّعبير به ماضيًا؛ لتأكيد حصوله على وجه السُّرعة مِن غير شكٍّ أو ارتياب، وأُسند إلى ضمير العظمة؛ للإشارة إلى سهولته على الله تعالى بما له "من العظمة الَّتي تُرهب الجبال"[1].

بلاغةُ الاستعارة في التَّعبير بفعل الكشف:

إبـــــرازُ رفـــعِ العذابِ في صورةٍ مـحـسـوسـةٍ يـعـرفُـهـا المـخـاطَـبـون، ويتصوَّرونها

في التَّعبير بفعل الكشف في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا﴾ استعارةٌ تصريحيَّةٌ، شُبِّه فيها رفْعُ العذاب عن فرعون وقومِه بكشف الغطاء عن الشَّيء، ثمَّ استُعير الكشفُ للرَّفع بعد تناسي التَّشبيه، على سبيل الاستعارة التَّصريحيَّة التَّبعيَّة الَّتي تُبرز رفْعَ العذاب في صورةٍ محسوسةٍ قريبةٍ يعرفها المخاطَبون، ويتصوَّرونها، وتوضِّحُ كيف كان العذابُ محيطًا بهم.

دلالةُ تقديمِ الجارِّ والمجرورِ على المفعول:

عُبِّرَ بحرف الجرِّ (عن) في قوله: ﴿عَنْهُمُ﴾؛ للدَّلالة على أنَّ العذاب كان ملاصقًا لهم، يحيط بهم، كما يحيط الإناءُ المُغَطَّى بما

(1) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 445.

فيه، ما يؤكِّدُ أنَّ ذلك العذابَ كان مَهْلَكَةً لهم، وقُدِّم الجارُّ والمجرورُ على المفعول: ﴿ٱلْعَذَابَ﴾؛ لبيان الاهتمام بذكر إنجائِهم؛ تكريمًا لنبيِّ الله موسى ﷺ، واستجابةً لدعائِه، وإقامةً للحجَّة عليهم.

دعاءُ الأنبياءِ له أهمّيَّتُه ويلقى الاستجابةَ مِنَ اللهِ تعالى

نوع (ال) في ﴿ٱلْعَذَابَ﴾ ومعناه:

(الـ) في ﴿ٱلْعَذَابَ﴾ للعهد الذِّكريِّ، ما يجعل المُراد به: العذاب الَّذي سبق ذكره في قوله: ﴿وَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾، والمعنى: فلمّا كشفنا عنهم العذاب الَّذي أخذناهم به[1]، وقد فُصِّل هذا العذاب في قوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ﴾ [الأعراف: 133].

عـادة فـرعـونَ وقومِه إذا كُشِفَ عنهم العذابُ أن يرجعوا إلى خُبثِهم ومكرهم

الغرض من التَّعبير بـ ﴿إِذَا﴾:

﴿إِذَا﴾ في قوله تعالى: ﴿إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ﴾ هي الفُجائيَّةُ، الدّالَّة على أنَّ نكثَهم التَّعهُّد بالاهتداء أمرٌ مثيرٌ للدَّهشة والاستغراب، ولا يُتَوقَّع حصولُه مِن عاقلٍ رشيدٍ، رأى العذابَ بعينيه، والتجأ إلى نبيِّ الله طالبًا الدُّعاءَ بالنَّجاة منه، والتَّخفيف من شدَّته، "فَجُمْلَةُ: ﴿إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ﴾ جَوابُ (لَمّا)، و﴿إِذَا﴾ رابِطَةٌ لِلجَوابِ لِوقوعِ جَوابِ الشَّرطِ جُملَةً اسميَّةً، فَلَمّا كانَ ﴿إِذَا﴾ حَرْفًا يَدُلُّ عَلى مَعنَى المُفاجَأةِ؛ كانَ فِيهِ مَعنَى الفِعْلِ، كَأَنَّهُ قيل: فاجأوا فاجَؤوا بِالنَّكْثِ، أي: بادَروا به، ولم يُؤَخِّروهُ، وهَذا وصْفٌ لَهُم بِإضمارِ الكُفْرِ بِموسَى وإضْمارِ النَّكْثِ لِليَمِينِ"[2].

نـكـثُ الـكـفّـارِ تـعَـهُّـدَهـم بالإيمانِ أمرٌ في غايةِ الدَّهشةِ والاستغرابِ

سرُّ التَّعبير بالضَّمير مُقَدَّمًا على المُسنَد الفعليِّ:

عبَّر النَّظمُ عن فرعون وقومه بالضَّمير في قوله تعالى: ﴿هُمْ يَنكُثُونَ﴾؛ جريًا على الأصل في التَّعبير عن الاسم الَّذي سبق ذكره بالضَّمير، ولما يفيده الضَّمير من تعيين المُتَحَدَّث عنه تعيينًا يحول دون صرف المراد عنهم إلى أحد آخر، والمعنى: إذا فرعونُ وقومُه

الَّـذيـن طلبوا تخفيف العذاب هم الَّذين نقضوا الوعد بالإيمان والاهتداء

(1) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 445.
(2) ابن عاشور: التحرير والتنوير: 9/ 73.

الَّذين هرعوا إلى طلبِ تخفيفِ العذابِ، ينكثون بعد أن خفَّفَه اللهُ عنهم، وفي تقديم المسندِ إليه الضَّمير على الخبر الفعلي: ﴿يَنكُثُونَ﴾ تأكيدٌ وتقويةٌ لحصول النَّكث منهم المرَّةَ بعد المرَّة.

بلاغةُ الاستعارة في التَّعبير بفعل النَّكث:

تصويرُ حُمق فرعون وقومه، وبيان عنادهم وشدَّة إصرارهم على الكفر

حقيقةُ النَّكث: نَقْضُ المَفتولِ مِن حَبلٍ أو غَزْلٍ، كما سبق بيانه، قالَ تَعالَى: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثًا﴾ [النَّحل: 92]، وفي التَّعبير به استعارة تصريحيَّة، شُبِّه فيها عدمُ الوفاء بالعهد بالنَّكث، بجامع الهدم في كلٍّ، ثم استُعير النَّكث لعدم الوفاء بالعهد بعد تناسي التَّشبيه، على سبيل الاستعارة التَّصريحيَّة التَّبعيَّة، الَّتي تُبرز حُمقَ فرعون وقومِه، وعنادَهم وشدَّةَ إصرارهم على التَّمسُّك بما هم فيه، على الرَّغم من كونه سببًا في نزول العذابِ بهم[1].

وجهُ التَّعبيرِ بالخبر فعلًا مضارعًا:

كان فرعونُ وقومُه ينكثون عهدَهم المرَّةَ بعدَ المرَّةِ

جيء بالمسند: ﴿يَنكُثُونَ﴾ فعلًا مضارعًا؛ لما يمتاز به المضارع - بجانب استحضار الصّورة الماضية كأنَّها حاضرة ماثلة - من الدَّلالة على تجدُّد نكث فرعون وقومه للتَّعهُّدات الَّتي كانوا يقطعونها على أنفسهم بالإيمان؛ كلَّما تجدَّد نزولُ العذاب، وتغيَّر نوعه، والمعنى: فاجَؤوا كشف العذاب بتجديد النَّكث بإخلاف بعد إخلاف[2].

دلالةُ حذف المفعول به:

نكثُ العهدِ غايةُ فرعون وقومِه وقصْدُهم

أوثرَ حذف المفعول من جملة: ﴿يَنكُثُونَ﴾، والتَّقدير: ينكثون عهدَهم؛ لكونه معلومًا من سياق الكلام، وللدَّلالة على أنَّ النَّكث كان غايتَهم وقصْدَهم، وأنَّهم كانوا يبيِّتون القيامَ به، وكانوا يَكْذبون فيما يتعهَّدون به لنبيِّ الله كلَّ مرَّة.

(1) ابن عاشور: التحرير والتنوير: 9/ 73.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 445.

توجيهُ المتشابه اللَّفظي:

سـورةُ الأعـراف تقصد إلى بسط قصص الأنبياء، وسـورةُ الزُّخرف تعرضُها بإيجاز

ورد التَّعبيرُ عن نقضِ فرعونَ وقومِه تعهُّدَهم بالاهتداء؛ إذا رَفَع اللّه عنهم العذابَ بالنَّكث في موضعين من كتاب اللّه الكريم، **أحدُهما:** قولُه تعالى: ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ﴾، **والآخر:** قولُه: ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾﴾ [الأعراف: 135]، ومن الملحوظ أنَّ البيانَ في آية سورة الأعراف عبَّر عن العذاب بـ ﴿ٱلرِّجْزَ﴾ [الأعراف: 135]، **ومعناه:** العذاب المقلقل لشدَّته، قلقلةً شديدة متتابعة، وأصل الرَّجز في اللُّغة: تتابع الحركات، فمن ذلك قولهم: ناقةٌ رجزاء؛ إذا كانت ترتعد قوائمُها عند قيامها[1]، كما جاء البيانُ مشتملًا على قيدٍ يبيِّن أجَلَ كشف العذاب في قوله: ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ﴾ [الأعراف: 135]، وهو قيدٌ دالٌّ على أنَّ فرعون وقومَه اعتادوا نكثَ الوعد ونقْضَه مع كلِّ عذاب ينزل بهم، حتّى انتقم اللّه تعالى منهم، فأهلكهم بالغرق، وهذا ما خلا منه البيان في آية سورة الزُّخرف، والسِّرُّ في ذلك أنَّ سورة الأعراف قامت على بَسْطِ أحداث القصص الَّتي وردت فيها، في حين اعتمدت سورة الزُّخرف على بيان تلك الأحداث بنوعٍ من الإيجازِ والاختصارِ.

❁ الفُروقُ المُعجَمِيَّةُ:

الرَّبُّ والإلهُ:

الاسـتـغـاثـةُ وطلب المساعدة مـن مـقـامـات الرُّبوبيَّة

الرَّبُّ في الأصل: من التَّربية، وهو إنشاء الشَّيء حالًا فحالًا إلى حدِّ التَّمام، يقال: رَبَّهُ، وربّاه ورَبَّبَهُ، ولا يُقال: الرَّبُّ مطلقًا إلّا للّه تعالى المتكفِّل بمصلحة الموجودات[2]، والإلهُ: اسمٌ لكل معبودٍ لهم، مثل اللّات، وسمّوا الشَّمسَ إلاهَةً؛ لاتِّخاذهم إيّاها معبودًا، وأَلَهَ فلان يَأْلُهُ الآلهة: عَبَدَ، وقيل: تَأَلَّهَ، فالإلهُ على هذا هو المعبود[3]، ولمّا

(1) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير: 2/ 149.
(2) الراغب، مفردات القرآن: (رب).
(3) الراغب، مفردات القرآن: (أله).

كان السّياق للاستغاثة وطلب المساعدة؛ آثر فرعونُ وقومُه التَّعبير بمفردة ﴿رَبَّكَ﴾؛ لمناسبتها ما يرجونه من مصلحة رفعِ العذاب، والإنجاءِ من الهلاك.

النَّكث والنَّقض:

النَّكْثُ في الأصل: نَكْثُ الأَكْسِيَةِ والغَزْلِ[1]، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثًا﴾ [النحل: 92]

النكث أيسرُ وأعمُّ من النَّقض، وهو المناسب لحال فرعون وقومه

ويُستعار لِنَقضِ العَهدِ، قال تعالى: ﴿وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُم مِّنۢ بَعۡدِ عَهۡدِهِمۡ﴾ [التوبة: 12][2]، والنَّقْض بالكسر: اسم البناء المنقوض؛ إذا هُدِم، والجمَل الَّذي قد هَزَلَه السَّفر وأضناه، وما نُكِثَ من الأخبِيَة والأكسية، فغُزِل ثانية، وقِشْرُ الأرض المنتقِضُ عن الكَمأة؛ إذا أرادت أن تخرج[3]، ويُفهم من أنَّ النَّكث أسهل من النَّقض وأسرعُ، ومن ثمَّ ناسب تعبير البيان به؛ للدَّلالة على تراجع فرعون وقومه عن العهد الَّذي قطعوه على أنفسهم بالاهتداء؛ إذا رُفع عنهم العذاب؛ لبيان سهولة التَّراجع عليهم، وعدم مبالاتهم بحصوله منهم المرَّة بعد المرَّة.

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نكث).
(2) الراغب، مفردات القرآن: (نكث).
(3) الفيروزابادي، بصائر ذوي التمييز: 5/ 115، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (نكث).

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الرابع والخمسون،
سورة الزُّخرُف من الآية 37 إلى سورة الجاثِية الآية 15
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1447هـ - 2026م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2026م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الرابع والخمسون، سورة الزُّخرُف من الآية 37 إلى سورة الجاثِية الآية 15
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2026.
مج. 54 ، 802 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-655-02-2
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 54 : المجلد الرابع والخمسون، سورة الزُّخرُف من الآية 37 إلى سورة الجاثِية الآية 15.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-655-02-2
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-8769435 بتاريخ 2026/01/07م،
الهيئة الوطنية للإعلام، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
"تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام"
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي "النجار"